

الوحدة العربية

في القرن التاسع عشر^(١)

إبراهيم بن محمد أبو بكر إبراهيم

للرب — كما للأمم القوية — صفات خاصة، ويميزات بارزة، جعلت لهم
طابعا خاصا وشخصية خاصة بها يمتازون من غيرهم.

وترجع أسباب ذلك إلى أمور من بينها:

اعتزازهم بقوميتهم، وبكل مقوماتها اعتزازا قويا. فهم يعتزون بجنسيتهم
العربية، ويفخرون بها، وهم يعتزون ببلغتهم العربية، ويتمصبون لها، وهم يعتزون
بوطنهم العربي، وبحبوتهم.

وكذلك حرصهم على تراثهم القديم الذي ورثوه عن آبائهم السالفين:
من تقاليد، وعادات وآثار أدبية، وعلمية، وفنية. فهم يحافظون عليه كل المحافظة
ومهما يحدث في هذا التراث من تجديد أو تعديل أو زيادة أو نقص — فإن جوهره باق
لا يتغير أبدا: كالسياسة من الذهب النضار، تصاغ جليا، ثم تعاد سبيكة مرة أخرى
فلا يزيدا ذلك إلا بريقا وصفاء.

إن هذا كله كان وما زال مصدر حياة العرب، والرابطة الوثيقة التي تجمع بين
قلوب العرب. سواء من سكن منهم الشام، ومن أقام بالعراق، ومن دخل مصر
مقاي على ضفاف النيل وفي واديه، ومن توطن في أفريقية بالسودان وعلى شاطئ
البحر الأبيض، ومن هاجر منهم إلى أمريكا أو غيرها من بقاع الأرض، ومن
وطن الجزيرة العربية الفيحاء.

كان هؤلاء العرب متآلفين متآزرين لاتهملهم بوارق السيوف ، ولا تفرغهم
لواع الخوف : عدوهم مقهور ، وطالبهم مأسور ، حتى لحقتهم فتنة عياء أوقد
نارها المستعمرون ، وأضرهم أوارها الاجانب المعتصبون .

روع العرب في القرن التاسع عشر أن وجدوا الشرق طعمة للغرب ، وأن
وجدوا بلادهم العربية نهبا مقسما في أيدي الأفاكين المستبدين ، فاحتشدت في
نفوسهم آلام قاسية ، وذكريات ثاوية ، واحساسات مبرحة ، دفعتهم بقوة وحرارة
الى تلس الوسائل للتخلص من هذه الجزاح ، ولإعادة حياتهم القديمة .

هبوا من نومهم أفرادا وجماعات ، وقد اشتد بهم الظمأ الى الحرية التي حرموها
والى الحياة التي يجب أن يحيوها . وظهر من بينهم رجال العلم والأدب ، وأبطال
السياسة والاجتماع ، يوجهون العرب الى الغايات البعيدة السعيدة وينادون بجمع
كلمتهم وتوحيد جهودهم . فظهرت في كل أقليم نهضات قومية ، وثقافية ، وسياسية ،
 واجتماعية : شعارها العروبة ، ولحمها وسداها : التعصب للعرب والعربية .

فالسوريون والليثانيون والمصريون والحجازيون وغيرهم قد ارتبطت بلادهم
بمواثيق العروبة : فأخذوا يتعاونون بحكم القرابة ، والجوار ، والجنس ، واللغة ،
والوحدة في الغايات ، والمشاركة في الوجدانات . وكان هدفهم هدفا واحدا يرنون
اليه بأبصارهم ، ويعقدون عليه خناصرهم ويجمعون من أجله قواهم ، ألا وهو :
إبعاد الاجانب ، والتخلص من نير استعبادهم ، ليرفرف على البلاد جميعا علم
السلام والحرية ، وعلم العرب والعروبة .

فكان التعاون يوفود الشعراء والكتاب والخطباء والمصلحين ، وبالجمعيات
الكثيرة السرية وغير السرية . واستمرغوا في سبيل غايتهم ، الوسع والطاقة ونالهم
ما نالهم من نفى وعذاب فما وهنوا وما استكانوا .

والوحدة العربية الآن ليست بدعة مستحدثة في هذا العصر ، بل هي وليدة
لتطورات اجتماعية ، وتيارات سياسية ، وأخرى وطنية ، وهى ثمرة لجهاد طويل
قامت به أمم العرب . وعلى الاخص منذ عصر محمد على باشا ، بعد أن فقدت وحدتها

قرونا، وتبددت كلمتها أزمانا، وأحست إحساسا عميقا بألم الوحشة والعزلة، وألم
التفرق والتحزب، وشعرت بالحاجة اللاحة الى التضافر والتناصر. عندئذ فقط
وجهت جهودها إلى الانضمام، لتجتمع صفوفها متراصة بجماعة كالبنيان. فقامت
سوريا ولبنان ومصر والعراق، وتونس والجزائر وطرابلس بمشروعات لهاخطرها
في التعاون الثقافي والسياسي والاقتصادي على أيدي رجال العلم والأدب منذ بداية
القرن التاسع عشر.

ورجال العلم والأدب في كل عصر هم الشعراء، وهم الرسل للنهضات القومية
وهم الألسنة الناطقة بحياة أممهم وميولها، واتجاهاتها. وهم الأطباء إن عز الدواء.
وكانت سوريا أسبق الأقطار الشقيقة الى ميدان الوحدة، فهدت لها بالنزول
أولا في ميدان النضال العلمي والأدبي ثم السياسي والاقتصادي. للخروج من فترة
الخمود والهمود، لانها رأت أن الوحدة العربية لا يمكن أن تتحقق دفعة واحدة إنما
تتحقق تدريجا وعلى مر الزمن: شأن كل المشروعات العظيمة تبدأ صغيرة ثم تنمو اذا
توافرت لها عوامل الثمر والبقاء بمرور السنين الطوال. أو تموت اذا لم تقدر لها
إلا عوامل الذبول والفناء. وكيف مهدت سوريا السبيل الى هذه الوحدة؟ سارعت
الى الاخذ من أمم الغرب ما وجدته موافقا لرقيتها في الادب والعلم والثقافة.
ووضعت بذور التعاون المعنوي والحسي. فتآزرت مع مصر ولبنان والعراق في
سبيل هذه النهضة.

وكانت مصر أسبق الأقطار الشقيقة في الاستقلال الإداري والحرية الذاتية.
في عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير. فتوجهت اليها الأنظار وود كل قطر عربي
لو ينال استقلاله الذاتي كما نالته مصر. وبدأت الروح الديمقراطية تنتشر في الأقطار
العربية، فاستعان محمد علي باشا بالكتاب السوريين، ليشتغلوا في الدواوين المصرية
ولينهضوا بها من أمثال المعلم غالي، وحنان الطويل، ورزق الله الصباغ.

كما استعان بالترجمين من سوريا ولبنان ومن أشهرهم أحمد فارس الشدياق. وهو
لبناني الأصل. انتقل الى بيزوت سنة ١٨٠٩ ودرس مبادئ العلوم اللسانية. ثم
قصد القطر المصري وجعل يكتب في الوقائع المصرية الى سنة ١٨٣٤ ثم جال في
أحما أوروبا. فكان سفيرا للعرب في فرنسا وانجلترا، ثم توجه الى تونس. وحرر

فيها جريدة «الرائد التونسي» ، ثم سافر الى الاسكندرية وأظهر جريدة الجوائب سنة ١٨٦٠ وظلت نحو ثلاث وعشرين سنة . ثم أبطلت . إلى أن توفى في سنة ١٨٨٧

إزالة القوارق

ولما كانت هناك قوارق جغرافية وسياسية وطبيعية ودينية بين الأقطار العربية الشقيقة ، وكان من شأن هذه القوارق أن تعيق عقبة في سبيل الوحدة ، وأن تعوق سيرها ، أو تبعد الهدف عن مرمى الأبصار - رأى أدباء الشام ومصر أن من واجبهم أن يعملوا هم أنفسهم على إزالة هذه القوارق بقدر ما يستطيعون ، بإيجاد الصلات وتميز الروابط ، وتحديد الأهداف . وعملوا على ما فيه مصلحة الأقطار العربية فإذا عملوا ؟ وضعوا أسس الصداقة والتحالف ، ودساتير المحبة والتآلف . وقام شعراء مصر بتمدحون بسوريا ولبنان ، ويشيدون بذكر العرب وفضلهم . وقام شعراء الشام يشيدون بمجد العرب ، ويشيرون في نفوسهم النعرة العربية والقومية العربية ، ليستعيدوا حياتهم القوية .

فكان في مصر من هؤلاء الشعراء إبراهيم بك مرزوق المصري الذي ولد بمصر سنة ١٨١٧ وتوفى بالخرطوم في بداية عصر إسماعيل . وله ديوان اسمه «الدر البهي المنسوق» بديوان الأديب إبراهيم بك مرزوق ،

ومن بينهم الشيخ محمد عاقل المصري وهو الذي قال مدحا في بيروت وأدبائها لإيجاد التعارف بين القطرين :

قال :

لقد قصدوا بيروت دار أعزة لهم تنتمي الآلاء في اللفظ والمعنى
نزيلهم قد شك في أصل داره وصار يقين الأمر في علمه ظنا
مدينة ظرف ما بها غير فاضل بسم وسم قد حوى الحسن والحسن
تشد له الأبواب كل مطية بجرية الإسعاف في كل ما عنا
وما منهم إلا وقد شب طوقه بنادى «نصيف اليازجى» ، وقد أفتى

بجيد المعاني وهو للقول حجة لأهل النهى — كم قد أجاد لنا فنا

° ° °

ومن شعراء الشام الذين عملوا على خدمة القضية العربية الشيخ إبراهيم اليازجي وقد ولد في بيروت سنة ١٨٤٧ وانتقل إلى مصر ، وأبرز فيها مجلة البيان . وأهاب بالعرب أن يتعاونوا وأن يحرسوا على عروبتهم :

قال في سنة ١٨٦٨ :

سلام أيها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام
لقد ذكر الزمان لكم عهدا مضت قدما فلم يضع الذمام
إلى أن قال :

وما العرب الكرام سوى نصال لها في أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ومن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أبولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا الأنام
فقد علم العراق لنا قديما أيادي ليس تنكرها الشام
وفي أرض الحجاز لنا فيوض يسيل لها إلى اليمن انسجام
وفوق الأندلس لنا بنود لهامات النجوم بها اعتمام
وسل في الغرب عن آثار نخر لها في جبهة الزمن ارتسام
ولسنا القانعين بذكر هذا وليس لنا بعروته اعتصام
ولسكننا سنجهد في المعالي إلى أن يستقيم لنا قوام
ففى هذه القصيدة اعتزاز بالقومية العربية ، وبالتراث العربي القديم ، واستحثاث
للغرب أن يتعاونوا متعاونين .

° ° °

وأراد أدباء الشام أن يتخذوا خطوة أخرى في تقريب الأقطار الشقيقة من
الناحية السياسية فدحوا ولاية مصر . وتوددوا إليهم ، وتقرّبوا منهم ، فنالوا حظوة
لديهم .

ومن هؤلاء : جرجس اسحاق طراد من أسرة وجيهة في بيروت ولد سنة ١٨٥٤ وتوفي سنة ١٨٧٧. قال يمدح مصر والتخديو اسماعيل باشا :

على اسماعيل سيدنا سلام تردده الأكابر والصغار
إذا ما غاب غاب العز معه كما إن عاد عاد لنا الفخار
لعزته تحز الأسب طوعا كاللوت - وللوت اضطرار
فما الإسكندرية في حماه سوى روض يجله اخضرار
ومصر الآن في الأفطار خرد تيمس بحلة لاتستعار

ولا يفوتني أن أنوه بفضل الكاتب الشاعر د اسكندر أبكار يوس ، في توثيق الروابط بين مصر وسوريا . فقد اشتغل بالتأليف في بيروت ثم دخل مصر ، ومدح أولى الأمر فيها . ثم توفي في بيروت سنة ١٨٨٥ وله ترجمة ابراهيم باشا دعاها ، المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية وهي مسجعة .

ومن شعره قوله ينهى التخديو سعيد باشا لما زار بيروت سنة ١٨٥٩
شرفتنا - فتزينت أقطارنا وزهت معالمها وطاب المورد
وتنورت بيروت حتى أصبحت من نور مجدك كوكبا يتوقد

وقال يمدح ابراهيم باشا ويذكر ماله من فضل وبسالة :
همام كان في الدنيا فريداً وركنا في المهمات العظام
ولا زالت وقائمه المواضي مخلدة على طول الدوام
وقائع لو رآها الطفل يوما لشاب لهولها قبل الفطام

وقال في حمد توفيق باشا إذ كان ولي العهد :
يا من به آمالنا تتعلق ونفوسنا للآلهاته تنشوق

فيك الفضائل والطائف والتقى . والمسكرات وكل حسن يرمق
لم تجتمع . فيك المحاسن إنما هنك المحاسن كلها تنفرد
تأمت بكم مصر السعيدة عزه وغدا جبين العصر فيكم يشرق
لازلك للقصاد أحسن كعبة وطريق رزق بابه لا ينلق

• • •

ومن شعراء الشام الذين عملوا على توثيق الروابط بين الاقطار العربية إلياس
صالح وقد ولد في اللاذقية سنة ١٨٣٩ ثم سافر الى مصر وقد مدح الخديو إسماعيل
سنة ١٨٧٥ بقصيدة تغتبس منها الآيات الآتية :

البشر في قطر مصر فاح عاطره واليمن قد نورت فيه أزاهره
رب المسكارم إسماعيل من شرفت به المعالي وزانتها مفاخره
هموم كل كئيب فهو فارجهما وكسر كل كسير فهو جابره
ركابه السعد بالاقبال يخدمها وجيشه الله أنى سار ناصره

الوحدة الثقافية

إن الوحدة الثقافية أسبق في التكوين من الوحدة الاقتصادية والوحدة العسكرية
السياسية ، لأنها أساس تبنى عليه الارتباطات والاتصالات الأخرى ، ولأنها مقدمة
طبيعية توحد بين العقول والآراء والاتجاهات والقلوب توحيدا يكون من أثره
التآلف والتخالف في النواحي السياسية والاقتصادية .

وقد كان للثقافة أنصار عملوا على نشرها بالوسائل المختلفة . ومن بينهم الفيلسوف
الخطيب جمال الدين الأفغاني زعيم النهضة والحرية ، وغارس بزور الوحدة الإسلامية
والوحدة العربية معا .

فقد كان الشروق العربي رازحا تحت نير الجلود العسكرية ، والتأخر العلمي ،
والاستعباد السياسي ، فجاءت رسالة جمال الدين مبعث يقظة الشرق وأساس حياته .
فقد بث في الأمم الشرقية روحا حية حفزت إرادتها ، وحركت هممتها نحو الأهداف

الثقافية والعمرانية والسياسية في عهد اشتد فيه بلاء الاستعمار ، وظلام التفرق .
 جاهد في سبيل الانسانية متقللين أقطار المشرق وأقطار المغرب منذ سنة ١٨٥٦م
 الى أن توفي سنة ١٨٩٧ فانتقل في هذه الفترة الى الهند والحجاز ومصر والاستانة
 ولندن وباريس وطهران ، لا يخاف للمستعمرين بطشا ، ولا يهرب للآوروبيين
 سلطانا .

انتظم في سلك الجمعية الماسونية لاقامة دعائم الديموقراطية ، وحرك الرأي العام
 في الشرق لفهم حقوقه المشروعة ، حتى يقف الشرقيون كافة متحدين جبهة واحدة
 في وجه الأجنبي .

وقد استعان في تكوين وحدة الشرق بالرابطة الدينية أيضا لأن الجامعة الدينية
 تربط الإيرانيين والافغانيين مع سائر الأمم العربية ، وبالجلة قد عمل - رحمه الله -
 على الاتحاد الشرقي في البلاد العربية وغير العربية .

وإذا لم يكن قد تم له تحقيق ما أراد في أيام حياته فذلك لأن الأجانب كانوا
 يستغلون نفوذهم في أطراف البلاد وأحشائها ، ليمرقلوا سير وحدتها ، ويقموا
 أنواع العقبات في وجه نهضتها . ومهما يكن من شيء فقد اتصل بالعقول والقلوب
 وترك من بعده خلفا يسير على مدهاء في سبيل الوحدة الاسلامية والوحدة العربية معا .

عناصر ووسائل الوحدة الثقافية

كانت الصحافة العربية وسيلة لنشر الثقافة وضم الصفوف ، وتغارب وجهات
 النظر بين الأقطار العربية بعد انتشار الطباعة ، فقد وفد الى مصر في القرن التاسع
 عشر جماعة من أدباء سوريا أنشئوا هنا في بلادنا طائفة من الصحف العربية ،
 وانخذوها أداة للتعبير عن الحياة في أقطار العرب كافة ، والتنويه بالنواحي السياسية
 بقدر ما سمحت به حرية الرأي في ذلك الحين . فكانت الصحف التي أسسها السوريون
 من أكبر عوامل النهضة العربية ، والثقافية العامة للأقطار الشرقية .

وقد اتفقت كلمة العرب على مناهضة الامتيازات الأجنبية منذ عصر اسماعيل
 باشا وعلى تدخل الأجانب الدخلاء في شؤونهم ، لتسلم لهم بلادهم ، وليكونوا

سادة في أقطارهم . فكان الأدباء في مختلف الأقطار يعالجون هذه الناحية في الصحف والمجلات بقوة وصرامة غير ناظرين إلى قطر دون قطر . وإنما كانوا يتوجهون بمقالاتهم وخطبهم وكتاباتهم إلى جميع الأقطار العربية : لأن شعورهم واحد في كره الأجانب ، وفي حب إعلاء كلمة العرب . ومن هؤلاء : أديب اسحاق (ولد سنة ١٨٥٦ في دمشق) وكان كاتباً وشاعراً وخطيباً . وقد أقام بالديار المصرية ، وهاله أن يرى الامتيازات الأجنبية تطفئ على حقوق العرب . فكتب في هذه التواحي قاصدا تنبيه قومه بمصر والشام إلى الحقوق والواجبات ، وتأميننا أضرار الامتيازات الأجنبية .

فكتب في جريدة مصر سنة ١٨٧٨ في شأن الافرنج وامتيازاتهم بعنوان : « أمانى ، يقول :

« من رأنا نذكر الافرنج تارة باللوم ، وطورا بالنظم ، ونطلق اللسان في بيان سوء معاملتهم لنا ، وأنهم في بلادهم خراف ترعى الرفق وتألف العدل ، وتتفيا ظلال الحرية والمساواة . وفي بلادنا أسود تنضم لحم الحيوان ، وتأوى إلى غاب القسوة والزهو والامتياز ، يحسب أننا ممن يشكرون فضلهم ، ويخسونهم أشياءهم . ولا والله — لسنا من ذلك في شيء . فأننا نعترف لهم بالمزية والفضل ، ولا نتجدد سبقتهم في مجال العلوم والفنون الخ . غير أن ذلك لا يمنعنا من مقت امتياز الافرنج عنا في الحقوق المدنية والسياسية ، ولا يرد عنا عن التماس المساواة التي يسكنون اليها ، ويحرصون عليها .

إتهم طلبوا الامتياز في الحقوق ، وانعفو عن الواجبات ، فأذن لهم أو ليا أمرنا : رهبة من منا وأنهم ، ورغبة في موالاتهم . إلى أن قال :

وقد آن — والله — للامة أن تطالب ، وللدولة أن تنجي ، بل آن للاوربيين أن يكفوا عن الطمع في الاثرة ، ويعدلوا عن الحرص على الامتياز . فقد أبطلت الحجة التي أنبتوا بها لأنفسهم ذلك الحق . . . الخ .

واستمر المرحوم أديب اسحاق بمجهوده الجبار يكتب ، ويخطب في ذم الافرنج

وتقيح استعمارهم ، وإيقاظ الشرق للطالبة بحقوقه . فما كتبته في جريدة مصر القاهرة سنة ١٨٨٠ تحت عنوان أوربا والشرق :

« قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، وينزل بعد الارتفاع . ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبت به أيدي الأجانب من كل جانب . فمنهم من ينير عليه بحجة الغيرة على الانسانية ، ومنهم من يتدخل فيه بدعوى إقامة المدنية ، ولم تر منهم من هو صادق في دعواه ، بل كلهم تابع في ذلك قصده وهو .. الخ .

وكان يدعو دائماً إلى وحدة العرب ، ليستطيعوا الحد من عبث الدول الأوروبية وذلك إذا ماتوا وتراحوا ، واتحدوا جبهة واحدة في وجه الأجنبي الأجنبي . فمن ذلك أنه قد بعث برسالة على لسان جمعية مصر الفتاة إلى الأمير عبد القادر الجزائري سنة ١٨٧٩ . (كان عبد القادر أميراً بالجزائر وحارب الفرنسيين ثم هزم واضطر إلى الهجرة لبلاد الشام وظل بها يعمل على توحيد القلوب ، وإزالة أسباب الخلاف إلى أن مات هناك .)

وجاء في هذه الرسالة ما يأتي :

« كتابنا أيد الله الأمير الأعز ، ونحن عصبة تذكر : ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر :

« رأينا ما ألم بهذه الأقطار من الأضرار ، ناشئة عن تحالف القلوب ، وتنافر الأفكار حتى صار الود مداواة والحرب عدواناً . فقلنا يا قوم : لا تنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

« رأينا بوادر البلاء ، وطلعت الشقاء ، نخفنا المصائب الأعظم ينقلب به الخير إلى الضير ، والمغتم إلى المنعم . وينزل بهاء الأمة ، ثم تغضب الأرض التي سقاها السلف الكرام بالدم ، فنهضنا نروم حفظ الباقيات الصالحات بوسائل السلم . والسلام أسلم .

ورأينا فقيرنا يتعثر بأذيال فاقته، وعظيمنا لا يأمن على راحته أو على مافى راحته. ومثل ذلك سائر إخوان الوطن الذى ولدنا فيه أو نزلنا بساحته. فتزعت أنفسنا إلى إعانتهم — ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته. ورأينا أنوار فضل الأمير توهظ الراقد، وتنبه الغافل من هباته الأمة فتكشف عنها كل ملّة. فعلينا أن لا بد من التماس مساعدته فى هذه المهمة، فرفعنا إليه الصحيفة التى هى لسان حالنا، لتتوب لديه عن لسان مقالنا؛ أمل الحصول على القبول: شأن الأمير فى معاملة من أنه ورجاه الخ.

• • •

الجمعيات والمؤتمرات

فى القرن التاسع عشر

كما أن الوحدة العربية فى الوقت الحاضر تتطلب اجتماع الصفوة من رجال العرب العبقريين فى الاقطار الشقيقة، ليتبادلوا الآراء، ويمحصوها، وليجعلوا أمرهم شورى بينهم، وليصلوا إلى نتائج لها أثرها فى تحرير الاقطار العربية من سلطان الدول الغربية — كذلك يبين لنا التاريخ أن مثل هذا قد ظهر بقوة وحماس فى القرن التاسع عشر.

وأول من دعا إلى ذلك الحديو اسماعيل باشا، فأنشئت فى عهده الجمعيات المختلفة. مثل الجمعية العلمية الشرقية، وأعضاؤها مختارون من مختلف الاقطار العربية. فكانت هذه الجمعية باعثة على ظهور الجمعيات الاخرى المتعددة التى عملت لانهاض العرب ثقافيا وسياسيا.

صار فى كل قطر جمعيات تعمل من أجل النهضة القومية تمهيداً للنهضة العربية العامة. فقد عمل كل قطر عربى على تكوين نفسه تكويناً قوياً ذاتياً، ثم على الانضمام إلى سائر الاقطار العربية التى ينضوى تحت لوائها العام. وترتب على هذا: انتشار الحرية الشخصية. وتأيد حقوق الافراد، والنزعة

إلى التضامن والتعاون ، ومحاكاة الأمم الحرة المتعدنية في ثقافتها ، ومناوأة الأجانب ، والوقوف في سبيل جشعهم واستعمارهم .

وأنقل هنا جانباً من مناظرة دارت في إحدى هذه الجمعيات وهي جمعية زهرة الآداب التي تأسست في بيروت سنة ١٨٧٣ بترخيص من الحكومة العثمانية . ومن هذه المناظرة بل ومن عنوانها تستنبطون مقدار ما كان يشعر به العرب إزاء الأجانب المستعمرين . تناولت المناظرة ، نابليون الأول ، في موضوع :

« هل كان خيره أكثر من شره ؟ »

فقال أحد المناظرين وهو المرخوم أديب بك إسحاق في هذا الموضوع ما يأتي :

لقد سبق لساني الخاطر ، وخاطري الفسك في الرضا بهاته المباحثة : تذكرني بالرجل الذي مارأيت فيه كبيراً غير ذنبه ، ولا عظيماً غير استبداده ، ولا مميّزاً غير شره وقسوته ..

أى اجترام أعظم مما سأسط ، وأى ارتكاب أفظع مما سأروى ، وأى افتئات أضرم ما سآبين في أعمال الآفة الحاصدة للأرواح والبليّة التازلة بالابدان ، والصاعقة المنقضة على عموم الانسان . وصفت نابليون الاول . وهذا الوصف لا يصل إلى معناه .

ولست في موقف الخطيب لا مثل سيئات هذا الرجل ، ومنكرات أعماله ، ولست في مقام المؤرخ لا جنى بتفصيل أحواله ، وبحصل أقواله . وإنما أنا مناظر في موضوعه ... التزمت أن أنفي عنه ما لم يكن فيه ألبنة من الخير ، وأن أثبت له ما كان راسخاً فيه من الشر ، وما التزمت إلا بيان البين ، وتحصيل الحاصل .

فقد كان متمتعاً على فطرة هذا الرجل أن يصدر منه شيء من الخير بالإرادة والاختيار . فان نتج من أفعاله شيء مفيد ، فوجه النفع فيه غير مقصود . وإنما حصل عنه كما ينفع القاتل ورثة المقتول ، والكاسر معمل الزجاج ، والهادم عطل

الفعله : لا يقصدون النفع فيما يعملون ، وإنما ينشأ ذلك عن طبيعة تلك الأعمال وقد يكون في بعض الشر خير من بعض الوجوه .

وإني ناظر فيه من ثلاثة وجوه: الأول حاله الادارية ، الثاني حاله السياسية ، والثالث حاله الذاتية الخصوصية . مينا ما ألحق بالناس عموماً ، وبالبلاد التي ولها خصوصاً من جسم الاضرار في كل حالة من تلك الحالات ، مينا في الاخيرة ما كان عليه من فساد الخلق ، وسفالة الفطرة ، وخسة النفس ، ليعلم أنه لا يتعمل صدور شيء من الخير المقصود من تجمعت فيه تلك النقائص :

لانترج الإصلاح من فاسد فالشهد لا يجنى من الحنظل

الشبه بين الماضي والحاضر

إننا نعرف أن من مبادئ الوحدة العربية في هذه الايام نشر الثقافة العربية وتوحيدها وتعميمها في الاقطار الشقيقة بقدر ما تيسر ، لتتربى في هذه الاقطار ناشئة تقارب في ثقافتها ، فتهدف إلى غاية واحدة وتسمى لها سعيها بآمال متقاربة .

وقد عثرنا على بذور هذه الدعوة في أواخر القرن التاسع عشر إذ أثار بعض الأدباء موضوعات تصل بحق التعلم ووجوبه على الآباء لولدهم من الذكور والإناث من السادسة إلى الثالثة عشرة من سنهم ، بالمدارس الابتدائية والاتصافية سواء أكانت هذه المدارس أميرية عمومية أم حرة خصوصية .

وقد كان القائمون بالدعوة للتعليم الإلزامي وتعميمه جماعة من أدباء سوريا وعلمائها ويقصدون أن يتحقق آمالهم في توحيد الثقافة ونشر الحقوق وقيام كل أمة بواجبها إزاء الأفراد ، وقيام الأفراد بواجبهم نحو أممتهم فلم تكن دعوتهم مقصورة على مصر وحدها ، بل شملت معها البلاد العربية الأخرى التي تريد أن تنهض . وكانوا أحرص

اناس على الوحدة، لأن الشام وطنهم كانت ترزح تحت سلطان العثمانيين المستبدين. ووجدوا في مصر مركزاً للقوة لأنها كانت مستقلة.

وقد قامت مشكلة المجانية في التعليم عام ١٨٨١ فقام بعض الكتاب يؤيدون الرأي القائل بالمجانبة المطلقة لآبناء الفقراء وآبناء الأغنياء على السواء وذلك بسبب انتشار روح الحرية، والعمل على محو الجهل والامية.

وقام فريق آخر يقرر أن المجانية يجب أن تكون مقيدة بالعجز والفقير، لا مطلقة حتى يؤخذ المال من الأغنياء لهؤلاء العجزة الفقراء.

وقامت جريدة البشير بمصر تعارض في أمر الالزام، وأمر المجانية، وقالت: إن التعليم من وجه الالزام ظلم وكفر وخش وجهالة، لا ينحق للهيئة الحاكمة ولا يجب على الأمة، ولا فائدة فيه لأحد من الناس بل هو البلاء العميم، لأن فيه إكراهها يذهب بحرية الآباء، وينقص من عدد العارفين، ويزيد في عدد الجهلاء. ثم اعترضت هذه الصحيفة على مجانية التعليم. وانحصر اعتراضها في أربعة أمور:

أولاً: إن المجانية المطلقة موجبة لمزيد النفقة، فهي ضريبة فادحة تزيد تكاليف الأمة انتقالاً.

ثانياً: إن المجانية بدعة مستحدثة لم تفد خيراً.. ولم يأخذ بها إلا القليل من الدول.

ثالثاً: إن المجانية من آثار الإباحية، لأنها تتعلق بالاشتراك في أموال الدولة. رابعاً: إن المجانية إنما وضعت في الأصل من أجل الفقير فقط ومن أجل إعانتة على التعليم. فإذا أطلقت من القيود صارت لإعانة الغني. وفي هذا حيف على الفقير لأنه لم يأخذ حقه من الغنى.

وما أشبه الليلة بالبارحة تجد مثل هذا البحث قائماً في الزمن الحاضر، زمن الحرية والديمقراطية والانسانية. وله مؤيدون، وله معارضون.

والسبب في طلب نشر التعليم وتعميمه أن يعرف كل مواطن حقوقه وواجباته

نحو نفسه ونحو غيره فيعمل لمصلحة وطنه واستقلاله ، والبعد عن سيطرة الأجنبي وبالجملة فقد ظلت الروح التعاونية تنتقل من السلف إلى الخلف وتساعد على تمام الوحدة العربية . وإدخالها في طور الفعل . وقام بعض الكتاب في هذا العصر بحجرون بالدعوة إلى الوحدة من أمثال الأ. مير شكيب أرسلان في محاضراته التي ألقاها سنة ١٩٣٧ .

كما أن بعض الشعراء من سوريا ولبنان قد تمدحوا بالأقطار العربية ، ودعوا إلى التناصر ، وساعدوا الكتاب والأدياء ومحررو الصحف والمجلات على هذا العمل الجليل ، وشد أزرهم أولو الأمر . كما كانت الحال في القرن التاسع عشر . وأذكر منهم على سبيل المثال شاعر العراق السيد معروف الرصافي . فقد دعا سوريا إلى الوحدة العربية بقصيدة نقتبس منها الآيات الآتية :

أما آن أن تنسى حقوق وأضغان فينبى على أس المؤاخاة بنيان
أما آن أن يرى التخاذل جانباً . فتكسب عزاً بالتناصر أوطان
علام التعادى لاختلاف ديانة وإن التعادى في الديانة عدوان
وما ضر لو كان التعاون ديننا فتعمر بلدان وتأمين قطان
إذا جمعنا وحدة وطنية فإذا علينا أن تعدد أديان
وأذكر على سبيل المثال أيضاً الشاعر إيليا أبو ماضي شاعر لبنان وقد وفد إلى مصر أيام المرحوم شوقي ثم غادرها إلى المهجر بأمريكا يقول في الحنين إلى الوطن:
مصر ولبنان معاً :

وطنان أشوق ما أكون اليهما مصر التي أحبتها وبلادي
ومواطن الأرواح بعظم شأنها في النفس فوق مواطن الأجساد
حرصى على حب الكنانة دونه حرص السجين على بقايا الزاد
- بلد الجبال خفيه وجليه والفن من مستطرف وتلاد
تحنو على الغرباء حتى أنهم لا يشعرون بفرقة وبعاد
عرضت مواكبها الشعوب فلم أجد إلا بمصر نضارة الآباد

وبعد: أو ليست الأهداف التي ترمى إليها العرب في غرب آسيا وشمال
أفريقية في العصر الحاضر هي بعينها الأهداف التي رعى إليها العرب منذ بداية
القرن التاسع عشر :
فظهرت الثمرة ونضجت وسميت باسم الجامعة العربية في القرن العشرين فبارك
الله فيها . والسلام عليكم .

محمد أبو بكر إبراهيم
المفتش العام بوزارة المعارف